# الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٢)

**تتابع الآداب نشر سلسلة من المقالات حول واقع الحركة الشيوعية العربية وسُبُل تطويرها. وقد نشرنا في العدد الماضي مساهمة سلامة كيلة، وسَنَنْشر في العدد التالي مساهمتيْ ياسين الحاج صالح (سورية) وأحمد بهاء الدين شعبان (مصر).**
الآداب

عبد الغفار شكر*

## I ـ المعاناة والأسئلة

يعاني اليسار المصري في السنوات الأخيرة انحسارًا في نفوذه السياسي والجماهيري صحيح أنّه موجود في أحزاب سياسية وأخرى محجوبة عن الشرعية، وفي مؤسّسات مدنية اجتماعية وبحثية، وفي منظمات شعبية انتَزَعَ من خلالها حقَّ التجمع السلْمي والعمل الجماهيري. وصحيح أنّه توجد نسبةٌ كبيرةٌ ممن ينتسبون إلى اليسار يَنْشطون بشكل فردي، ويمارسون نشاطًا فكريًا أو سياسيًا أو جماهيريًا بشكل مستقل. ولكنْ رغم حضور اليسار المصري فى الساحة وممارسته لأنشطة متعددة، فإنّه لم يستكملْ حتى الآن المقوِّماتِ الأساسيةَ للتصدي لمسؤوليته في مواجهة الأزمة الشاملة للمجتمع المصري، وهي أزمة نابعةٌ بالأساس من الطابع السلطوي لنظام الحكم وإصرارِ التحالف الطبقي الحاكم على وضع الاقتصاد المصري فى وضعِ رأسمالي تابع وتتحمل قوى اليسار مسؤوليةً أساسيةً في إخراج البلاد من أزمتها هذه ولعلّ من بين الأسئلة الجديرة بالمناقشة هنا ما يلي: لماذا لم يعد اليسارُ المصري قطبًا جاذبًا في الحياة السياسية المصرية، رغم وجوده الملحوظ في مختلف المجالات السياسية والثقافية والعلمية والجماهيرية؟ وما هي العوامل التي يُمْكن لو توفرتْ أن تحقِّق نهوضًا يساريًا جديدًا فى مصر؟

## II ـ قوة اليسار... سابقًا

من المهم هنا أن نعود إلى الخبرة التاريخية لليسار المصري. وعندها سنلاحظ أنّه نجح في أن يكون قطبًا فاعلاً في الحياة السياسية المصرية في فترات سابقة من تاريخنا الحديث والمعاصر: حدث ذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما طَرَحَ رؤيتَه إلى مستقبل مصر، رابطًا بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية. وحدث ذلك مرةً أخرى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، عندما ربط بين تحرير الأرض وبناءِ اقتصادِ الحرب والسير قُدُمًا نحو تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية وتوفيرِ الإطار الديموقراطي الذى يَكْفل للجماهير التمتُّعَ بحقوقها وحرياتها الأساسية وكانت مظاهراتُ العمّال والانتفاضة الطلابية وتحرُّكات المثقفين والمهنيين أبلغَ تعبير عن قوة اليسار وحيويته خلال هاتيْن الحقبتيْن، أي النصف الثاني من الأربعينيات وطوال السبعينيات.

يُمْكن القول بشكل عام إنّ اليسار المصري استند في حركته آنذاك إلى مجموعة من العوامل، نَذْكر منها:

١ ـ طرح اليسار رؤيةً فكريةً متكاملةً لمستقبل مصر، بالاستفادة من جهودِ مراكز بحثيةٍ ومنابر إعلامية وفكرية أسَّستْها المنظماتُ اليسارية وكانت تعمل تحت قيادتها مباشرةً

٢ ـ وجود اليسار في تنظيمات سياسية، بينها قدرٌ كبيرٌ من التوافق حول الأهداف العامة.

٣ ـ علاقة اليسار المباشرة بالقوى الاجتماعية الحيوية، وخاصةً العمّال والمثقفون والمهنيون والطلاب.

٤ ـ ممارسة اليسار نشاطًا جماهيريًا واسعَ النطاق حول القضايا الأساسية للقوى الاجتماعية المذكورة أعلاه، وحول القضية الوطنية التى كانت المحورَ الأساسيّ للنشاط الجماهيري.

٥ ـ تصدِّي جيل جديد من القيادات الشابة لقيادة التحركات السياسية والجماهيرية لليسار المصري.

٦ ـ وجود مثال اشتراكي عالمي ناجح وملْهِم للشعوب، يجسِّده الاتحادُ السوفياتي والمعسكرُ الاشتراكي، الذي كان نموذجًا للمقاومة الوطنية الباسلة ضدّ الفاشية في الأربعينيات، والحليفَ الرئيسَ لمصر في السبعينيات ـ سواء في مجال التنمية أو تعزيز الاستقلال الوطني.

## III ـ أسباب تراجُع اليسار

يعود تراجعُ اليسار في السنوات الأخيرة بالدرجة الأولى إلى افتقاده معظمَ هذه العوامل التي ساعدتْ فى الماضي على زيادة نفوذه السياسي والجماهيري. وهناك أسباب موضوعية وأخرى

* ـ كاتب مصري

ذاتية كان لها دور أساسي في فقدان اليسار المصري عواملَ قوته وجاذبيته، أهمها

**أ ـ الأسباب الموضوعية** فعلى الصعيد الدولي هناك التدويلُ المتزايد للاقتصاد العالمي، والعولمةُ الرأسمالية، وثورةُ المعلومات والاتصال. وعلى الصعيد الإقليمي هناك اختلالٌ في علاقات القوى في المنطقة لصالح إسرائيل، وانهيارٌ للتضامن العربي، وزيادةٌ في الهيمنة الأميركية على دول المنطقة. وهناك على الصعيد المحلّي توقّفٌ لجهود التنمية، وتنفيذٌ لسياسات التكيف الهيكلي، وصعودٌ لنفوذ اليمين في السياسة والاقتصاد.

ـ في هذا الوقت أيضًا حصل انهيارُ الاتحاد السوفيتي، وتفكّكَ المعسكرُ الاشتراكي، وفَشلَ النموذجُ الاشتراكي المطبّق فيه وصاحَبَ ذلك كلَّه دعايةٌ إمبرياليةٌ بشعة أثّرتْ في قطاعات جماهيرية واسعة

ـ حدث تغيُّرٌ في ظروف الإنتاج، وتحوُّلٌ من الصناعات الكثيفة العمالة إلى الصناعات الكثيفة التكنولوجيا. وصاحَبَ ذلك تغيُّرٌ في عملية الإنتاج، وفي إمكانيةِ تجزئتها إلى عمليات تجميعية بسيطة يمكن أن يتم بعضُها في المنازل؛ فلم تعد هناك حاجةٌ إلى صيغة المصنع الكبير الذى يضمّ آلافَ العمال. وقد أدّى ذلك إلى ضعف قدرة العمّال على التضامن الجماعي والتمتُّع بالحقوق التأمينية المعهودة. كما أنّ العمّال لم يعودوا ينتمون إلى تنظيمات نقابية تدافع عن حقوقهم، فترتّب على ذلك ضعفٌ تنظيميٌّ وسياسيٌّ للطبقة العاملة.

ـ طَرَأ تغيُّرٌ في تركيب الطبقة العاملة، إذ انخفض عددُ العمّال اليدويين والصناعيين بسبب التطورات التكنولوجية، بينما تزايدتْ نسبةُ العمّال الذين يمارسون العملَ الذهني، كالمهندسين والعمّال العلميين والمحاسبين وتزايد أيضًا عددُ عمّال الخدمات. إنّ هذا التغيير في بنية الطبقة العاملة يوسّع صفوفَها ولكنّه يزيد في الوقت نفسه من الفوارق داخلَها، ومن عدم التجانس بينها.

**ب ـ الأسباب الذاتية**. لم يعد هناك توافق وتكامل في صفوف اليسار فقد تفكّكت المنظماتُ الماركسية وتحوّلتْ إلى جزر منعزلة، فضلاً عن أنّ الغالبية العظمى من اليساريين يَنْشطون خارج هذه المنظمات. كما لا توجد علاقةٌ حميمةٌ بين «حزب التجمُّع التقدُّمي الوحدوي» الذى يعمل فى إطار الشرعية، وهذه المنظّماتِ التي تنشط خارج هذه الشرعية وهذا ما حَرَمَ اليسارَ، ككلّ، من إمكانيات كبيرة فيما لو تم التنسيقُ بين كافة أقسامه وبين «حزب التجمُّع »

ـ ترتّب على هذا التشرذم في صفوف اليسار، وعدم امتلاك رؤية فكرية نابعة من فهم عميق للتطورات الجديدة، ضَعفُ علاقة اليسار بالطبقة العاملة والمثقفين والمهنيين والطلاّب وافتقد بذلك علاقتَه الحيويةَ بقاعدته الاجتماعية التي نشط من خلالها تاريخيًا.

ـ لا يوجد جيل جديد من القيادات الشابة بالقدر الكافي لقيادة نضال يساري سياسي وجماهيري متصاعد

## IV ـ نحو نهوض يساري جديد

هناك إمكانية حقيقية أمام اليسار المصري للنهوض من جديد إذا تركّزت الجهودُ على امتلاك رؤية فكرية جديدة تقوم على دراسة متعمقة للظواهر الجديدة، والتنسيق بين أقسام اليسار المصري فى إطار أهداف عامة مشتركة، والدفع بأجيال شابة إلى قيادة اليسار في مختلف منظماته وتحركاته. ويُمْكن القولُ إجمالاً إنّ انجاز هذه المهام يتطلب أن نَسْعى جميعًا إلى بناء اليسار كحركة مستقبلية، تعددية، ديموقراطية، جماهيرية.

**أ ـ حركة مستقبلية**. وتتحقق المستقبلية إذا توفّرتْ لليسار المصري ثلاثةُ عناصر أساسية هي.

● **الربط بين العلم والعمل في نشاط الحركة** إذ لا تستطيع حركةُ اليسار أن تواجه المستقبلَ بفاعليّة ما لم يصبح العلمُ والبحثُ العلميُّ في مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية موجِّهًا للنشاط السياسي والنقابي والاجتماعي لليسار، وما لم يَنْعكس ذلك فى برامج الأحزاب السياسية اليسارية وأولوياتها النضالية، وما لم يكن أساسُ نشاط اليسار في مختلف المجالات هو الاستفادةَ مما يُنْجَزُ من دراسات علمية حول التطورات العالمية والإقليمية وما حدث من تطورات في المجتمع المصري، ومدى تأثير هذه التطورات في مواقف القوى الاجتماعية التي تشكّل القاعدةَ الاجتماعيةَ لليسار المصري.

● **مرجعية المنهج والقيم** ما يزال اليسار المصري أسيرَ رؤيةٍ إيديولوجية تشكّلتْ في القرن العشرين. ورغم الانتقادات المستمرة للإيديولوجية السوفياتية، فإنّه لم يطوِّرْ رؤيةً فكرية جديدة خارج هذه الإيديولوجية، وليس هناك في هذا الصدد إلاّ عباراتٌ عامةٌ لا تكفي لطرح بديل متكامل، مثل القول بـ «اقتران الاشتراكية والديموقراطية» دون تحديد واضح لكيفية بناء الاشتراكية ديموقراطيًا. وليس واضحًا حتى الآن للجماهير إذا كانت الاشتراكية التي يدعو إليها اليسار هي النموذج المنهار أم هناك صيغة جديدة. من هنا، فإنّ الطابع المستقبلي لحركة اليسار المصري يتطلّب أن تكون مرجعيته هي المنهج العلمي للاشتراكية والقيم العامة للاشتراكية. فعندما تكون المرجعيةُ هي المنهج فإنّنا بذلك سنَمْلك حريةَ البحث والتفكير، وإمكانيةَ التجدد دومًا من خلال الدراسة الموضوعية للمجتمع والعالم.

● **تجديد القيادة** ومما يساعد على تحوُّل اليسار إلى حركة مستقبلية أن نَفْتح البابَ أمام انتقال القيادة إلى الأجيال الجديدة فما زالت القيادة أساسًا هي للجيل الذي تكوّن فكريًا

ونَضَجَ سياسيًا في منتصف القرن الماضي وفي ظروف مختلفة تمامًا، ولن تسعفه خبراتُه السابقة في قيادة اليسار بفعالية في الفترة القادمة، ولم تعد حالتُه الصحية والاجتماعية تمكّنه من بذل جهد مكثف والتخطيط للمستقبل ـ دون أن يعني ذلك الانتقاصَ من الدور الذى قام به هذا الجيلُ أو التضحيات التي قدّمها

**ب ـ حركة تعددية.** عانى اليسار المصري طويلاً إصرارَ كثير من أطرافه على نفي الآخر. وما أكثرَ الحروب القبلية الصغيرة التى خاضتها وتخوضها هذه الأطرافُ في مواجهة بعضها بعضًا! ولن يُكتب النجاحُ لحركة اليسار المصري مستقبلاً ما لم يسلِّم الجميعُ بالتعددية، ويعترفْ كلٌّ منهم بالآخر، انطلاقًا من أنّ التعددية ظاهرةٌ طبيعيةٌ ناجمةٌ عن تفاوت مستويات التطور الاجتماعي وتنوع الفئات الاجتماعية وتفاوت مستوى الوعي. ومن المهم فى هذا الصدد الاحتكامُ إلى الواقع والممارسة للتعرف على مدى صحةِ رؤية هذا الطرف أو ذاك. ومن الضروري التسليم بأنّ لدى كل طرف جزءًا من الحقيقة، وأنّ التعاون سوف يضاعف من طاقات اليسار المصري بدلاً من تبديدها فى صراعات جانبية

**ج ـ حركة ديموقراطية.** من أهم المنطلقات التي يجب أن يَحْرص عليها اليسارُ المصري مستقبلاً هو أن يكون ديموقراطيًا في ما يتصل بالطريق الذي يَسْلكه للوصول إلى السلطة. فنحن نسعى ونناضل من أجل بناء نظام اشتراكي في مصر بوسائل ديموقراطية، جوهرُها تداوُلُ السلطة من خلال الانتخابات العامة. ولكي يتحقق ذلك فإنّنا نَنْشط من خلال مؤسسات ديموقراطية، كالأحزاب والنقابات والجمعيات الأهلية والصحافة والإعلام، لإقناع المواطنين بتبنّي برامجنا الانتخابية وانتخاب مرشّحينا لمجلس الشعب والمجالس الشعبية المحلية وسائر المنظمات الاجتماعية ولا يَقْتصر نضالُنا الديموقراطي على العمل البرلماني، بل يَشْمل كافةَ وسائل الحشد والتعبئة والضغط الديموقراطية كالتظاهر السلمي.

وللديموقراطية أهميةٌ كبيرةٌ أيضًا في ما يتصل بالعلاقة بين مختلف أقسام اليسار ومنظّماته السياسية فلا مجال لفكرة الحزب القائد، أو لربط التنظيمات الجماهيرية بالحزب باعتبارها تنظيماتٍ مساعدةً تَنْشط فى إطار توجُّهاته وتَعْمل لحسابه في الحركة الجماهيرية والأفضل أن نَنْشط معًا في إطار شبكة واسعة من المنظمات الجماهيرية والاجتماعية والتنظيمات السياسية، لكلّ منها دورُها انطلاقًا من طبيعة نشأتها وتكامُل أنشطتها، على أساس من تبادل الآراء والخبرات. وكلُّ نفوذ يحقِّقه هذا الحزب أو ذاك في الحركة الجماهيرية يجب أن يعود أساسًا إلى سلامة ما يَطْرحه من توجهات وما يقدِّمه لهذه الحركة من قياداتٍ قادرةٍ على حيازة ثقة أفرادها بوسائل ديموقراطية

**د ـ حركة جماهيرية.** جاهَدَ اليسارُ المصري طويلاً لكي يَخْرج من إطار كونه حركةً نخبويةً، ولكنّه ما يزال حتى الآن حركةً نخبويةً في الأساس ولتجاوُز هذا الوضع والتحوُّل إلى حركة جماهيرية، فإنّه من المهم العمَل المباشر من خلال مؤسسات المجتمع المدني والقطاع الأهلي من أجل تحسين أحوال الناس المعيشية والدفاع عن مصالحهم المشتركة. وإذا كانت الحكومة تسعى إلى تقوية مؤسسات المجتمع المدني لكي تكون بديلاً لها يعوِّض انسحابَها من مسؤوليتها في دعم الفئات الفقيرة والضعيفة والتخفيف من حدة المشاكل الناجمة عن سياسات التكيُّف الهيكلي، فإنّ من واجب اليسار أن يَعْمل على تقوية هذه المؤسسات لكي تكون قادرةً على الوجود كمؤسساتٍ ديموقراطيةٍ تستطيع الدفاعَ عن مصالح أعضائها وتحسينَ أحوالهم المعيشية والضغطَ على صانع القرار من أجل تعديل السياسات العامة بما يحقِّق مصالحَ الأغلبية الشعبية

## V ـ مهامّ عاجلة

إنّ السير على طريق بناء اليسار المصري كحركة مستقبلية وتعددية وديموقراطية وجماهيرية سوف يستمرّ طويلاً ويحتاج إلى جهود متواصلة ويتطلّب ذلك العملَ على المدى الطويل، والبدءَ ـ في الوقت نفسه ـ بمهامّ عاجلة سوف يكون لها أثرُها في هذا العمل المستقبلي وفي هذا الصدد تَبْرز أربعُ مهامّ عاجلة

١ ـ انتظام الحوار في صفوف اليسار حول هذه القضايا، وبلورة رؤية فكرية مشتركة تكون أساسَ النضال المشترك لكل قوى اليسار ٢ ـ تطوير النضال المشترك بين مختلف قوى اليسار في المجالات السياسية والجماهيرية والثقافية والإعلامية. ٣ ـ الانخراط في كافة أشكال النضال حول القضايا المباشرة والمشاكل الملحّة للمواطنين عامةً، والطبقات الكادحة بصفة خاصة. ٤ ـ التعرف على الجديد في الفكر الاشتراكي العالمي، ودراسة خبرات الأحزاب الاشتراكية في البلدان الأخرى للاستفادة منها بما يتناسب مع ظروفنا

**القاهرة**

**تصـــويب**

ورد خطأ في العدد الماضي في مادة حميد دباشي أنّ إدوارد سعيد ولد عام ٢٠٠٣، والصواب: ١٩٣٥